الزهراء: مجلة تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية والعربية
e-ISSN: 2502-8871
p-ISSN: 1412-226X
DOI: http://dx.doi.org/10.15408/zr.v20i2.30777
السنة العشرون، العدد: ٢، ١٤٤٥هـ/٢٠٢٣م
هذا المنشور متاح مجانا بموجب ترخيص نسبة المصنف إلى مؤلفه CC-BY-SA
https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/

مفهوم التوحيد في الموروث الفكري لسيد قطب

◊ حمد عبد السلام حمد الفارسي[١]
◊ فاتمير شيهو[٢]
◊ زينب بوبكر حمد زوبي[٣]

[١،٢] الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا – ماليزيا
hamadalfarisi@iium.edu.my
fatmir@iium.edu.my
[٣] دكتوراة الفلسفة – ليبيا
zenab.B.zoubi@gmail.com

الملخص

لقد اتسم سيد قطب بسمات الرجل المفكر، والباحث الأديب، والمجاهد الصابر، والمخلص الصادق. ولقد كان لفكره المنبثق عن إقامة الدين والدنيا على أساس العقيدة الإسلامية أثر كبير في إثراء الفقه الحركي للأمة الأسلامية. قدم سيد قطب للعالم الإسلامي خاصة وللعالم عامة المعنى الحقيقي لمفهوم التوحيد. ذلك المفهوم الذي من أجله أُرسلت الرسل، وأُنزلت الكتب. ذلك أن مفهوم التوحيد هو المفسر لهذا الوجود بما في ذلك الإنسان لأنه محور مهم فيه. تهدف هذه الورقة إلى عرض مفهوم التوحيد كما جاء في الموروث الفكري لسيد قطب وأثره على نسج خيوط العقلية المسلمة في العصر الحديث. تأتي أهمية هذا المحتوى العقدي الإيماني في هذا الوقت تحديدا لضرورة الدفاع عن عقيدة الأمة الإسلامية ضد المظهر الحديث للغزو الفكري الذي اتخذ طرقا عدة ومظاهر مختلفة يعمل من خلالها على تغيير عقيدة الأمة فيما يتعلق بمفهوم الخالق والإنسان والحياة.

تاريخ إصدار المقال :
تاريخ الاستلام: ٢٧ يناير ٢٠٢٣
تاريخ المراجعة: ١ أغسطس ٢٠٢٣
تاريخ القبول: ٢٣ أغسطس ٢٠٢٣

الكلمات المفتاحية:
سيد قطب، مفهوم التوحيد، الإيمان

Al-Zahra: Journal for Islamic and Arabic Studies
e-ISSN: 2502-8871
p-ISSN: 1412-226X
DOI: http://dx.doi.org/10.15408/zr.v20i2.30777
Vol. 20, No. 02, 2023 M-1445 H
This is an open access article under CC-BY-SA license
(https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/)

The Concept of *Tawhid* in The Intellectual Legacy of Sayeed Qutb

◊ **Hamad Abdulsalam Hamad Alfarisi**[1]
◊ **Fatmir Shehu**[2]
◊ **Zainab Bubakr Hamad Zubi**[3]

[1]*International Islamic University Malaysia – Malaysia*
hamadalfarisi@iium.edu.my
[2]*International Islamic University Malaysia – Malaysia*
fatmir@iium.edu.my
[3]*PhD – Libya*
zenab.B.zoubi@gmail.com

Article History
Received: January 27, 2023
Revised: August 1, 2023
Accepted: August 23, 2023

Keywords
Sayyid Qutb, Tawhid, Faith

Abstract

Sayyid Qutb was characterized by the attributes of a man who is a thinker, intellectual, literary researcher, patient, and is sincere and honest. And his thought emanating from the establishment of religion and the world on the basis of the Islamic faith had a great impact in enriching the dynamic jurisprudence of the Islamic nation. Sayyid Qutb presented to the Islamic world in particular and to the world in general the true meaning and the concept of the monotheism (*Tawhid*). This paper aims to present the concept of *Tawhid* according to what is found in the intellectual legacy of Sayyid Qutb. Furthermore, to stress on its impact on shaping Muslim's mindset in the modern era.

المقدمة

يعتبر سيد قطب من أبرز وأشهر المفكرين الإسلاميين في القرن العشرين، وذلك بشهادة أهل الفكر والدراية. جمعت شخصية سيد قطب خصائص مهمة، فلقد كان الرجل مفكرا وباحثا، وأديبا، ومجاهدا، وصابرا، ومصابرا، ومخلصا، وصادقا. ولقد ختم الله له بخاتمة يرجوها كل مسلم مجاهد صادق تلك هي الشهادة في سبيل دعوة الإسلام. سيد قطب له مسيرة دعوية إيمانية عجيبة فهي مسيرة غنية بالثروة المعرفية والممارسة العملية للمفهوم الإيماني لمعنى التوحيد. فقد قدم للعالم الإسلامي خاصة وللعالم عامة المعنى الحقيقي لكلمة التوحيد ولمفهوم التوحيد فكان التوحيد ومفهومه منهج حياة وليس مجرد مفهوما نظريا لا يظهر له أي أثر في حياة الناس.

لقد تعددت البحوث في العديد من المجالات حول العالم التي تناولت فكرة سيد قطب، منها ما نشره مكتفي (٢٠٢٢) والذي تركزت دراسته على فكرة سيد قطب في ميدان السياسة، وعلى وجه الخصوص في مفهوم الحاكمية. وأيضا مقال بوزرنيجاد يتعامل مع نفس المجال الذي يثير فيه الجدل بشأن فصل الدين عن السياسة. إنه يؤكد على أن الدين ليس مقصورًا على الجوانب العقلية والروحية للناس فحسب، بل يجب أيضًا أن يلعب دورًا مهمًا في توجيه المصير الاجتماعي (٢٠١٧). وكذلك مقل كتبه البنا وأصحابه (٢٠١٩) حول فكرة سيد قطب عن الجاهلية التى قد شاعت المفكرين إلى من يؤيدها ومعارضها فأراد الباحثون بيان حقيقة من هذا المصطلاح. والآخر قد حلل فكرة سيد في مجال التربية (jamil, 2017)، والدعوة الإسلامية (Zabidi, 2022)، وزعم دور فكرته في تأثير المرهبين بعد ٩/١١ (El-Jaici, 2021). لهذا يسعى هذا المقال إلى إكمال الثغرات التي تزال ماثلة في الفكر القطبي، والتي تتعلق بعقيدة على وجه الخصوص، من خلال استكشاف مفهوم التوحيد.

طريقة البحث

تم إعداد بيانات هذه الورقة بالرجوع إلى ما كتبه سيد قطب في أهم كتبه وأشهرها مثل: في ظلال القرآن، ومشاهد القيامة في القرآن، والتصوير الفني في القرآن، وخصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ومقومات التصور الإسلامي، والمستقبل لهذا الدين، وهذا الدين، ومعالم في الطريق، وأيضا كتاب دراسات إسلامية. طريقتنا في هذا البحث تقوم على عرض ما كتبه سيد عن مفهوم التوحيد وذلك بتناول النصوص المتعلقة بالخالق (وهو الله) والعبد (وهو الإنسان) والكون (المخلوقات والأكوان). ثم نعقب على ما كتبه سيد بالتعليق على تلك المفاهيم أولا بأول. فمادة هذه الورقة قد بنيت على الإستشهاد بكتابات سيد قطب ووضعت كتاباته بين علامتي التنصيص وفيما عدا ذلك فهي تعليق من الباحثين.

التعريف بسيد قطب وأثر نشأته على تكوينه الفكري:

هو سيد قطب إبراهيم حسين شاذلي. ولد في اليوم التاسع من شهر أكتوبر من عام ١٩٠٦ للميلاد في محافظة أسيوط إحدى محافظات بلاد مصر. تحصل على شهادة البكالريوس في الأدب من دار العلوم بالقاهرة عام ١٩٣٣ للميلاد. عمل في التربية والتعليم وكان له حراك سياسي وكتابات ومقالات وأبحاث كثيرة بعيدة عن العمل الإسلامي حتى عام ١٩٥٣ للميلاد حيث انتظم في جماعة الإخوان المسلمين بعد أن وجد فيها ما كان يبحث عنه (الخالدي، ١٩٩٤). خلال عقده الرابع أقبل على دراسة القران الكريم دراسة أدبية. ومن هناك بدأ يدرس الإسلام دراسة فكرية نظرية جديدة شكلت تحولا عجيبا في طريقة فهم النص القراني. عندما بدأ رحلته مع القران وانطلق في طريق الدعوة الإسلامية انهالت عليه المحن وتعرض للإبتلاءات. استمر به ذاك الحال إلى أن ارتقى إلى ربه شهيدا في سحر يوم الإثنين التاسع والعشرون من شهر أغسطس عام ١٩٦٦م الموافق للثالث عشر من شهر جمادى الأولى عام ١٣٨٦ هجري (الخالدي، ١٩٩٤). ترك سيد قطب للأمة الإسلامية تراثا فكريا عميقا وثروة في السلوك والحركة أساسها ومنهجها ومنطلقها وغايتها هي إقرار التوحيد والعمل به حتى تكون كلمة لا إله إلا الله منهج حياة. وعلى رأس كتبه التسعة والعشرون في الأدب والنقد والفكر الإسلامي كان كتابه " في ظلال القران" الذي اعتبر به مفسرا مجددا ورائدا للفكر الإسلامي.

ولا شك أن نشأت الأنسان ستلقي بظلالها على مسار حياته وطرق تفكيره وتحديد سلوكه. فسيد قطب نشأ في قرية ذات طبيعة ساحرة يرى فيها ذلك الجمال الذي يتجدد بتغير فصول السنة الأربعة. فلا غرو أن كان لهذا أثر على قلمه الأدبي ودوام نظره في جمال هذا الكون فكان سيد يقرأ في كتاب الله المنظور كما يقرأ في كتاب الله المسطور. كذلك أصطحاب والده له إلى المسجد منذ كان صغيرا وحضوره لصلاة الجماعة مع أهل قريته ورؤيته لتدين والده كان له أثر في وضع بذور تلك الشجرة الإيمانية في قلب سيد التي كبرت وأينعت وآتت أكلها بعد حين. قال سيد قطب مخبرا عن والده: " لقد طبعت في حسي- وأنا طفل صغير- مخافة اليوم الآخر لم تعظني أو تزجرني ولكنك كنت تعيش أمامي واليوم الآخر في حسابك وذكراه في ضميرك وعلى لسانك. كنت تعلل تشددك في الحق الذي عليك وتسامحك في الحق الذي لك بأنك تخشى اليوم الآخر... وإن صورتك المطبوعة في مخيلتي ونحن نفزع كل مساء من طعام العشاء فتقرأ الفاتحة وتتوجه بها إلى روح أبويك في الدار الآخرة ونحن أطفالك الصغار نتمتم مثلك بآيات منها متفرقات قبل أن نجيد حفظها كاملات" (قطب، ٢٠٠٢). لقد تعلق قلب سيد قطب بالقرآن العظيم ولم ينفك عنه لحظة فقد كان ينظر إلى العالم من حوله وتعقيداته الأخلاقية وتجاذباته السياسية وتغيراته الإجتماعية وكانت عينه على الأمة الإسلامية في وقت تلاطم تلك الأمواج فعقد العزم لإنشاء مكتبة قرآنية جديدة فقال: "هذا هو الكتاب الثاني -مشاهد القيامة في القرآن- في مكتبة "القرآن الجديدة" التي صح عزمي على إنشائها – بعون الله " (قطب، ٢٠٠٢). فبدأ سيد قطب من خلال مكتبته القرآنية الجديدة يرسم الخارطة الذهنية للأمة الإسلامية لتنهض من جديد ولتتبوء مكانتها التي خصها الله بها وتحقق سنة الإستخلاف على هذه الأرض بتحقيق منهج لا إله إلا الله ذلك المنهج الذي كان دستوره القرآن. في هذه الورقة سنعرض بشكل موجز مفهوم التوحيد كما جاء في الموروث الفكري لسيد قطب وأهمية ذلك في بناء عقيدة الأمة الإسلامية.

في مفهوم التوحيد

من المقرر أن العلم بالتوحيد هو أشرف العلوم إذ أن شرف العلم من شرف المعلوم وهو الفقه الأكبر بالنسبة لفقه الفروع كما سماه الإمام أبو حنيفة- (الحنفي، ١٩٩٧).

وإنها أعظم حقيقة في الإسلام بل أعظم حقيقة في هذا الوجود وأية حقيقة أولى بالإحكام والثبات من حقيقة التوحيد (الصاوي، ٢٠٠٩).

غير أن هدف هذه الورقة ليس العرض العلمي للتعريف بالتوحيد وبأقسامه كما هي عادة كتب العقيدة. وإنما هو عرض التوحيد في شكل المفهوم والتطبيق، وللإجابة عن سؤال يبحث عن أثر التوحيد في قلوب المؤمنين، وهل للتوحيد أثر في تشكيل العمليات العقلية بحيث يكون التوحيد هو القاعدة المعرفية التي تنطلق منها نظرات المؤمنين لعوالم هذا الكون وهل يعي المؤمنون أن معني التوحيد هو أن يكون منهج حياة لا ينفك بحال من الأحوال عن الدين والدنيا وأن التوحيد يتناول مظاهر الحياة جمعيا؟. هل يعي المسلمون أن التوحيد هو مفهوم له أثر ووجود في الكون والدنيا سواء بسواء كوجوده في علوم الدين؟.

في الحقيقة أنه درج في الأمة الإسلامية في العصور المتأخرة العرض العلمي لعوم الشريعة بحيث يتلقى المسلمون علوم الدين كمواد يتم دراستها بشكل منفصل وتحت أسماء مخصوصة لكل علم. وهذا أمر لا غبار عليه من الناحية العلمية لبناء العلوم عند تلقيها. ولكن فصل علوم الدين عند التلقي وعرضها بشكل نظري لا يلمس واقع الأمة في الوقت الذي تعرضت فيه الأمة الإسلامية للفتن التي عملت على المساس بعقيدة الأمة فإن هذا قد فتح الباب للإنفصام بين العبادة والعقيدة في تصور كثير من المسلمين. فأصبح من المألوف أن نرى في الأمة الإسلامية من يصلي و يصوم ويحج البيت الحرام ولكن إيمانه ملوث بمفاهيم لا تتصل بمفهوم التوحيد في شيئ. فلقد حدث الإستعمار التدريجي للأمة الإسلامية في العديد من جوانب حياتها. ففي الجانب المالي والمعاملات، وفي الجانب السياسي والحكم، وفي الجانب القانوني والقضاء، وفي الجانب الثقافي والتعليم، دخل على المنظومة المعرفية للأمة الإسلامية مفاهيم أخرى غريبة لا تتصل بالإسلام في شيئ بل إنها تضاد التوحيد في كثير من الأحيان. فما هو الميزان والمرجعية التي يزن بها المسلمون أمور التلاقح الفكري بين الأمم و البحث عن الحكمة وأخذها؟. هذه ليست دعوة لإعتزال بقية الأمم أو ترك ما لديهم من الحكمة أو الإمتناع عن تقديم النفع والرحمة لهم فهذه بالطبع هي رسالتنا أن نكون رحمة للعالمين. ولكن دعوة لتحقيق رسالة الإسلام في هذا الكون وفقا وطبقا لمنهج خالق هذا الكون وهو منهج كلمة التوحيد.

إن المفهموم الحقيقي للتوحيد تضمنته مراجعنا الفكرية منذ أن بدأ تدوين العلوم الإسلامية في القرون الأولى بعد الهجرة النبوية الشريفة. ولم يكن هنالك انفصام بين سلوك المؤمنين وبين منظورهم لهذا الكون بل كان تكوينهم الفكري العقدي هو الحاكم على شؤون الحياة وعلى ما يستجد لهم من أمور محدثة وذلك لأن فهمهم للتوحيد كان يقوم على أن التوحيد ليس مجرد إفراد الله وحده بالعبادة وقصر العبادات على صور محدودة بل إن التوحيد هو الحق اليقيني الذي يستقر في القلوب فتحتكم إليه وتزن الأشياء بميزانه في شؤون الدين والدنيا وفي شؤون الإنسان والكون. ووفقا لما قال الإمام ابن أبي العز الحنفي : "وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد بل كل سورة في القرأن. فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وهو التوحيد العلمي الخبري. وإما دعوة إلى عبادته وحده لا

شريك له وخلع ما يعبد من دونه فهو التوحيد الإرادي الطلبي. وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته" (الحنفي، ١٩٩٧).

فإن مفهوم التوحيد الذي هو موضوع بحث هذه الورقة هو علاقة التوحيد بالإلتزام بالأمر الإلهي و الإنتهاء عن ما نهي الله عنه لتحقيق عمارة الكون ولأداء مهمة الإستخلاف في الأرض. وهذا الفهم هو ما تميز به سيد قطب في عرضه ودعوته لتوحيد الخالق.

مفهوم التوحيد عند سيد قطب وأثره على تشكيل عقل المسلم في العصر الحديث

إذا تفحصنا ما كتبه سيد قطب عن مفهوم التوحيد فلن نجد ذلك العرض العلمي لعلم التوحيد وأقسامه وفروعه كما يقدمه غيره في هذا الباب. بل نجده يقدم مفهوما عمليا للتوحيد يظهر جليا في ثنايا كتاباته الأدبية الراقية. ففي بيان حاجة البشرية لهذا الدين الحق، وبيان الغاية من وجود الإنسان وخلقه يقول سيد: "جاء دور الإسلام الذي لا يتنكر للإبداع المادي في الأرض لأنه يعده من وظيفة الإنسان الأولى منذ أن عهد الله إليه بالخلافة في الأرض ويعتبره – تحت شروط خاصة – عبادة لله وتحقيقا لغاية الوجود الإنساني قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً) البقرة: ٣٠،(وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) الذاريات: ٥٦ " (قطب، ١٩٧٩).

ويقول أيضا: "لابد إذن من مؤهل آخر لقيادة البشرية – غير الإبداع المادي – ولن يكون هذا المؤهل سوى العقيدة والمنهج الذي يسمح للبشرية أن تحتفظ بنتاج العبقرية المادية تحت إشراف تصور آخر يلبي حاجة الفطرة كما يلبيها الإبداع المادي" (قطب، ١٩٧٩).

ولقد انتبه سيد قطب إلى مظاهر عديدة من مظاهر الإعتداء على حقوق وخصائص التوحيد. ومن أمثلتها الإعتداء على حق الحاكمية والتي تمثل إحدى خصائص توحيد الألوهية فقال: " إن العالم يعيش اليوم كله في جاهلية من ناحية الأصل الذي تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها....هذه الجاهلية تقوم على أساس الإعتداء على سلطان الله في الأرض وعلى أخص خصائص الألوهية وهي الحاكمية.. إنها تسند الحاكمية إلى البشر فتجعل بعضهم لبعض أربابا لا في الصورة البدائية الساذجة التي عرفتها الجاهلية الأولى ولكن في صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم والشرائع والقوانين والأنظمة والأوضاع بمعزل عن منهج الله للحياة وفيما لم يأذن به الله" (قطب، ١٩٧٩).

ومن هنا يتبين أن سيد قطب كان في فهمه أن النظام الإسلامي القائم على توحيد الخالق بالإنقياد إليه وتحكيم شرعه يتنافى من النظام الغربي الذي جعل مركزه هو الإنسان من حيث مصادر التلقي والتشريع. يقول سيد: "وفي هذا يتفرد المنهج الإسلامي فالناس في كل نظام غير النظام الإسلامي يعبد بعضهم بعضا – في صورة من الصور – وفي المنهج الإسلامي وحده يتحرر الناس جميعا من عبادة بعضهم لبعض بعبادة الله وحده والتلقي من الله وحده والخضوع لله وحده" (قطب، ١٩٧٩).

وفي بيان معنى التوحيد يقول سيد: "ونحن ملزمون بمحاولة تحقيق ذلك المنهج ابتداء لنحقق لأنفسنا صفة الإسلام. فركن الإسلام الأول: أن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.. وشهادة أن لا إله إلا الله معناها القريب: إفراد الله – سبحانه – بالألوهية وعدم إشراك أحدا من خلقه معه في خاصية واحدة من خضائصها.. وأولى خصائص الألوهية: حق الحاكمية المطلقة الذي ينشأ عنه حق التشريع للعباد وحق وضع المناهج لحياتهم وحق وضع

القيم التي تقوم عليها هذه الحياة. فشاهدة أن لا إله إلا الله لا تقوم ولا تتحقق إلا بالإعتراف بأن لله وحده حق وضع المنهج الذي تجري عليه الحياة البشرية...وشهادة أن محمدا رسول الله معناها القريب: التصديق بأن هذا المنهج الذي بلغه لنا من الله هو حقا منهج الله للحياة البشرية وهو وحده المنهج الذي نحن ملزمون بتحقيقه في حياتنا وفي حياة البشر جميعا" (قطب، ٢٠٠١).

وهنا يضع سيد يده على موضع الداء الذي أُصيبت به الأمة الإسلامية ذلك هو الركون إلى مناهج جعلت الإنسان هو المصدر الوحيد للمعرفة وجعلت له حق سن القوانين المتعلقة بتنظيم حياة البشر و التصرف في الكون دون الرجوع إلى مصادر الوحي. وإن الذين يَدعُونَ فهم التوحيد ويجعلون الوحي في عزلة عن الحياة والكون، قد وقعوا في تناقض صريح.

لقد عمل سيد قطب على إيقاظ الأمة من غفلتها وانبهارها بالعالم الغربي وحضارته المادية مبينا أن اهتمام الغرب بالأمة الإسلامية ليس حبا في الإسلام ولا تقديرا له ولا رغبة منهم في إقامته بل إنهم يريدون إسلاما وفقا منهجهم يحمي ثقافتهم وقوتهم. قال سيد: "والإسلام الذي يريده الأمريكان وحلفاؤهم في الشرق الأوسط ليس هو الإسلام الذي يقاوم الإستعمار وليس هو الإسلام الذي يقاوم الطغيان ....إنهم لا يريدون للإسلام أن يحكم ولا يطيقون من الإسلام أن يحكم لأن الإسلام حين يحكم سينشئ الشعوب نشأة أخرى وسيعلم الشعوب أن إعداد القوة فريضة وأن طرد المستعمر فريضة" (قطب، ٢٠٠٦).

وأما في سنن التغيير والإصلاح فإن مفهوم التوحيد عند سيد يظهر في قوله: "وحين نستعرض الثورة التحررية الكبرى التي قادها محمد بن عبدالله – صلى الله عليه وسلم – خلال ثلاثة وعشرين عاما ونستعرض الإنقلابات الروحية والإجتماعية والإقتصادية والعسكرية والأدبية التي تمت في هذه الفترة القصيرة... ندرك أنه ما لم تتصل قوة البشر الفانية المحدودة بقوة الأزل والأبد المطلقة الخالدة فإن هذه الخوارق كلها لم تكن لتتم وهي خوارق أعظم من نقل الجبال وتجفيف البحار وتحويل العناصر من حال إلى حال" (قطب، ٢٠٠٦). فمن هنا يتضح معنى توحيد الخالق في قلب المؤمن الذي يعالج سنة التدافع في الأرض ليحقق منهج الله سبحانه وتعالى في عالم الضمير والكون.

ويضع سيد أمام المسلمين خطر الإبتعاد عن مفهوم التوحيد فيقول:" وكلما انحرفت الجماهير عن الإدراك الصحيح لدين الله الواحد الخالد ...التقت بطاغوت الشرك في صورة من صوره الكثيرة" (قطب، ٢٠٠٦). وفي الحقيقة هذا هو ما جنته الأمة الإسلامية في بعض مجتمعاتها عندما استبدلت التشريع الإسلامي بتشريع وضعي أو عندما ارتضت لنفسها نظاما تعليميا أو ثقافيا أو اقتصاديا لا يستلهم المنهج الإسلامي المنطلق من الوحي.

وهذا الفهم لمعنى التوحيد المُوجِبُ للإنقياد لمنهج الله هو ما يقرره علماء الأمة كابن القيم الجوزية في قوله: "فإن الإيمان ليس مجرد التصديق وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والإنقياد وهكذا الهدى ليس هو مجرد معرفة الحق وتبينه بل هو معرفته المستلزمة لاتباعه والعمل بموجبه" (الصاوي، ٢٠٠٩).

إن مفهوم التوحيد الذي يعرضه سيد قطب على الأمة الإسلامية هو المفهوم العملي التطبيقي للتوحيد الذي يُلْقي بأثره وظلاله على مظاهر الحياة جميعا وذلك بالتسليم والإنقياد لمنهج رب العباد حتى تصطبغ حياتهم بتعاليم هذا الدين في جميع جوانبها.

تصور التوحيد وأثره على القيام بهذا الدين

إن الغاية من وراء وضوح مفهوم التوحيد حقيقة هو التفسير الكلي لهذا الوجود بما في ذلك الإنسان لأنه محور مهم فيه. إن كل الفلسفات القديمة والحديثة والنظم العالمية التي ابتدعها الإنسان سواء في الشرق أو في الغرب عملت جاهدة وبشكل متكلف على وضع تصور لهذا الوجود ولكنها لم تنجح في ذلك بسبب ركونها إلى الأرض وانقطاعها عن السماء. فعندما جعلت من الإنسان، ومن المنهج التجريبي هما فقط المصدر الوحيد للمعرفة واستبعدت الوحي ضلت وأضلت ووقفت عاجزة عن تحقيق التوازن والإنسجام بين الإنسان والكون وسبب ذلك هو غياب ذلك المنهج الذي وضعه خالق الإنسان والكون. ذلك المنهج الذي يحدد تلك العلاقة بين الخالق والإنسان والكون . وفي هذا يقول سيد: "لابد للمسلم من تفسير شامل للوجود يتعامل على أساسه مع هذا الوجود..لابد من تفسير يقرب لإدراكه طبيعة الحقائق الكبرى التي يتعامل معها وطبيعة العلاقات والإرتباطات بين هذه الحقائق: حقيقة الألوهية. وحقيقة العبودية (وهذه تشتمل على حقيقة الكون. وحقيقة الحياة. وحقيقة الإنسان)..وما بينها جميعا من تعامل وارتباط.. وضرورية لأنه لابد للمسلم من معرفة حقيقة مركز الإنسان في هذا الوجود الكوني وغاية وجوده الإنساني.. فمن هذه المعرفة يتبين دور الأنسان في الكون وحدود اختصاصه كذلك وحدود علاقته بخالقه وخالق هذا الكون جميعا....فنوع النظام الذي يحكم الحياة الإنسانية رهين بذلك التفسير الشامل ولابد أن ينبثق منه انبثاقا ذاتيا وإلا كان نظاما مفتعلا قريب الجذور سريع الذبول والفترة التي يقدر له فيها البقاء هي فترة شقاء للإنسان كما أنها فترة صدام بين هذا النظام وبين الفطرة البشرية وحاجات الإنسان الحقيقة الأمر الذي ينطبق اليوم على جميع الأنظمة في الأرض كلها بلا استثناء وبخاصة في الأمم التي تُسمى متقدمة" (قطب، ١٩٩٧).

إن الهدف الحقيقي من وراء تقديم سيد قطب تصور التوحيد هو الحركة بهذا الدين في واقع الإنسان والكون والحياة وليس تقديم مادة نظرية تدرس في علم التوحيد والعقائد. يقول سيد في توضيح ذلك: "لا نبغي إنشاء فصل في المكتبة الإسلامية يضاف إلى ما عرف من قبل باسم الفلسفة الإسلامية. كلا إننا لا نهدف إلى مجرد المعرفة الباردة التي تتعامل مع الأذهان وتحسب في رصيد الثقافة إن هذا الهدف في اعتبارنا لا يستحق عناء الجهد فيه إنه هدف تافه رخيص إنما نحن نبتغي الحركة من وراء المعرفة. نبتغي أن تستحيل هذه المعرفة قوة دافعة لتحقيق مدلولها في عالم الواقع. نبتغي استجاشة ضمير الإنسان لتحقيق غاية وجوده الإنساني كما يرسمها هذا التصور الرباني. نبتغي أن ترجع البشرية إلى ربها وإلى منهجه الذي أراده لها" (قطب، ١٩٩٧).

التصور الإسلامي لتفسير الوجود لا ينبثق إلا من منهج التوحيد

بالنظر إلى طبيعة نشأة التصور الغربي عن الخالق والإنسان والكون والعلاقة بينهم يتبين أنه لا لقاء ولا توافق بين ذلك التصور والتصور الإسلامي المفسر للوجود والقائم على التوحيد. ذلك لأن تلك النظم الغير إسلامية قد نشأة بشكل مشوه وهجين استقت أصولها من الفلسفة الأغريقية والرومانية الملوثة بالوثنية وامتزجت بالنصرانية بعد دخول الدولة الرومانية في النصرانية. ثم عقب ذلك الإنفصام بين الكنيسة والحياة بسبب عجز الكنيسة عن تلبية حاجات فطرة الإنسان وفشلها في تحقيق التوازن والإنسجام بين الإنسان والكون.

لذلك يرى سيد قطب في منهجه أنه: "جاء النص القرآني – ابتداء – لينشئ المقررات الصحيحة التي يريد الله أن تقوم عليها تصورات البشر وأن تقوم عليها حياته. وأقل ما يستحقه هذا التفضل من العلي الكبير وهذه الرعاية من الله ذي الجلال – وهو الغني عن العالمين – أن يتلقوها وقد فرغوا لها قلوبهم وعقولهم من كل غبش دخيل ليقوم تصورهم الجديد نظيفا من كل رواسب الجاهليات – قديما وحديثا على السواء – مستمدا من تعليم الله وحده لا من ظنون البشر التي لا تغني من الحق شيئا" (قطب، ١٩٩٧).

ولم يغفل سيد عن وضع العقل في منزلته في مقام الحديث عن التصور الإسلامي لتفسير الوجود: "يبقى أن الوحي والعقل ليسا نديين فأحدهما أكبر من الآخر وأشمل وأحدهما جاء ليكون هو الأصل الذي يرجع إليه الآخر" (قطب، ١٩٩٧). لذلك يرى سيد أن الرجوع إلى القرآن والأخذ عنه هو الكفيل بتكوين أجيال الأمة الإسلامية تكوينا فريدا قائم على الوحي المنزل كما كان ذلك التكوين الذي أحدثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر هذه الأمة عندما صنع من الصحابة جيلا فريدا غير الله به وجه العالم عقيدةً وأخلاقا، وأدبا، وسلوكا، ومعاملة. جيلا سعى في الأرض على بصيرة في أمر هذا الوجود فأصلحها وأعمرها بالمنهج الإلهي. " إنهم في الجيل الأول لم يكونوا يقرؤون القرآن بقصد الثقافة والإطلاع ولا بقصد التذوق والمتاع...إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها وشأن الحياة التي يحياها هو وجماعته. يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه" (قطب، ١٩٧٩).

يرى سيد قطب أن الفارق بين ذلك الجيل الفريد – جيل الصحابة – والأجيال التي تليه هو بسبب الفارق في طريقة التلقي من المنهج "منهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل الأول. ومنهج التلقي للدراسة والمتاع هو الذي خرج الأجيال التي تليه"..."نرجع إليه نستمد منه تصورنا لحقيقة الوجود كله ولحقيقة الوجود الإنساني ولكافة الإرتباطات بين هذين الوجودين وبين الوجود الكامل الحق وجود الله سبحانه .. ومن ثم نستمد تصوراتنا للحياة وقيمنا وأخلاقنا ومناهجنا للحكم، والسياسة، والإقتصاد، وكل مقومات الحياة" (قطب، ١٩٧٩).

حياته في ظلال القرآن و استنباطه لمعنى التوحيد

يقول سيد قطب: "وانتهيت من فترة الحياة – في ظلال القرآن – إلى يقين جازم حاسم..إنه لا صلاح لهذه الأرض ولا راحة لهذه البشرية ولا طمأنينة لهذا الإنسان ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة ..إلا بالرجوع إلى الله..والرجوع إلى الله – كما يتجلى في ظلال القرآن – له صورة واحدة وطريق واحد..واحد لا سواه..إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسمه للبشرية في كتابه الكريم..إنه تحكيم هذا الكتاب وحده في حياتها. والتحاكم إليه وحده في شؤونها. وإلا فهو الفساد في الأرض والشقاوة للناس والإرتكاس في الحمأة والجاهلية التي تعبد الهوى من دون الله: (فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ) القصص:٥٠. إن الإحتكام إلى منهج الله في كتابه ليس نافلة ولا تطوعا ولا موضع اختيار إنما هو الإيمان...إنه أمر العقيدة من أساسها.. ثم هو أمر سعادة هذه البشرية أو شقائها..إن هذه البشرية – وهي من صنع الله – لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله ولا تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء

الذي يخرج من يده – سبحانه – وقد جعل في منهجه وحده مفاتيح كل مغلق وشفاء كل داء: (وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا) الإسراء:٨٢ (قطب، ٢٠٠٣).

وخلص سيد إلى أن عبادة الله وحده تستلزم الإستسلام والإنقياد له وحده لا شريك له في الشعائر التعبدية كما أنه لا شريك له في الشرائع والقوانين التي هي حق خالص من حقوق الألوهية. فلا يستقيم التوحيد إذا اختل إيمان العبد بلوثة فكرية تفسر له الوجود بغير ما أتى به الوحي المنزل ولن ينسجم العبد المؤمن ولن يأنس في هذا الكون إذا اتخذ منهجا آخر وضعيا أرضيا غير المنهج الرباني يفسر له علاقته بالخالق وبالكون. كذلك خلص إلى أن التوحيد القائم على شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله هو منهج للحياة ولا يستقيم الإيمان إلا إذا قام على هذا الفهم.

قال سيد عند حديثه عن معنى لا إله إلا الله منهج حياة :"العبودية لله وحده هي شطر الركن الأول في العقيدة الإسلامية المتمثل في شهادة: لا إله إلا الله. والتلقي عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في كيفية هذه العبودية – هو شطرها الثاني المتمثل في شهادة أن محمدا رسول الله. والقلب المؤمن المسلم هو الذي تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان وأركان الإسلام إنما هو مقتضى لها.... ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة أو قامت على قاعدة أخرى معها أو عدة قواعد أجنبية عنها" (قطب، ١٩٧٩).

المناقشة

إن الغاية من خلق الإنسان ووجوده على هذه البسيطة هي عبادة الله وحده فهي أصل الدين وذلك هو التوحيد الذي جاءت به الرسل. ولقد كان لسيد قطب كمفكر إسلامي وعالم مجاهد كان له أثر كبير في تجديد مفهوم التوحيد في العصر الحديث عن طريق تقديم حقيقة التوحيد بلغة العصر وذلك بعد ما طرأ على الأمة الإسلامية من مفاهيم دخيلة غيرت تفسير الحقيقة الكونية من تفسير يستمد من الوحي المنزل إلى تفسير يستمد من عقل الإنسان وخبراته التي هي في أغلب أحوالها خبرات متغيرة ومضطربة تخضع للتجربة والتحقيق والإستنتاج العقلي. لقد خلص سيد إلى أن التصور الإعتقادي لمفهوم العبودية أنه التصور الذي ينشأ في الإدراك البشري من تلقيه لحقائق العقيدة من مصدرها الرباني والذي يتكيف به الإنسان في إدراكه لحقيقة ربه ولحقيقة الكون الذي يعيش فيه -غيبه وشهوده- ولحقيقة الحياة التي ينتسب إليها -غيبها وشهودها- ولحقيقة نفسه..أي لحقيقة الإنسان ذاته.. ثم يكيف على أساسه تعامله مع هذه الحقائق جميعا مع ربه تعاملا تتمثل فيه عبوديته لله وحده وتعامله من الكون ونواميسه ومع الأحياء وعوالمها ومع أفراد النوع البشري وتشكيلاته تعاملا يستمد أصوله من دين الله – كما بلغها رسول الله صلى الله عليه وسلم – تحقيقا لعبوديته لله وحده في هذا التعامل.. وبهذه الصورة يشمل نشاط الحياة كلها.

لقد قدم سيد قطب فهما عميقا لحقيقة التوحيد ومعنى إيماني وعملي لمفهوم عبادة الله وحده. وفي الحقيقة أن جوهر هذا التفسير الذي جاء به سيد موافق تماما لما عليه علماء الأمة من أهل السنة والجماعة. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ودين الإسلام مبني علي أصلين وهما: تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأول

ذلك ألا تجعل مع الله إلها آخر فلا تحب مخلوقا كما تحب الله ولا ترجوه كما ترجو الله ولا تخشاه كما تخشى الله ومن سوى بين المخلوق والخالق في شيئ فقد عدل بالله وهو من الذين بربهم يعدلون وقد جعل مع الله إلها آخر وإن كان مع ذلك يعتقد أن الله وحده خلق السموات والأرض" (ابن تيمية، ٢٠٠٤).

فالعبادة التي يجب صرفها لله وحده تحقيقا للتوحيد وامتثالا للتكليف هي مفهوم شامل لأعمال القلب والجوارح ولا تقتصر على الشعائر التعبدية فقط كالصلاة والصيام وإنما تشمل الإحتكام إلى أمر الله في شؤون الحياة جمعيا. وذلك لإن إخراج جانب من جوانب الحياة من دائرة التكليف والتقيد بشرائع الدين... فهذا تكذيب بعشرات الآيات من القرآن الكريم ومئات الأحاديث (الصاوي، ٢٠٠٩).

لقد قدم سيد مفهوم تطبيق هذا الدين في واقع الحياة. ولكن أي واقع ذاك؟. درج كثير من المفكرين على القول بأن هذا الدين دين للواقع وفي الحقيقة هذا طرح ساذج إذا لم يعلموا عن أي واقع هم يتحدثون. إن واقع الأمة الإسلامية واقع متغير وطرأ عليه تغير بسبب النظم الغربية وفلسفاتهم المادية وهذا ألقى بأثره على جوانب الحياة جميعا. فمحاولة التكلف ولي أعناق النصوص القرآنية والمفاهيم الإسلامية لتوائم ولتتماشى مع واقع غيرته نظم وضعية وبشرية هي محاولة فاشلة. هنا يقول سيد "نعم إن هذا الدين للواقع ولكن أي واقع؟.. إنه الواقع الذي ينشئه هذا الدين نفسه وفق منهجه منطبقا على الفطرة البشرية في سوائها ومحققا للحاجات الإنسانية الحقيقية في شمولها هذه الحاجات التي يقررها الذي خلق والذي يعلم من خلق....والدين لا يواجه الواقع أيا كان ليقره ويبحث له عن سند منه ...إنما يواجه الواقع ليزنه بميزانه فيقر منه ما يقر ويلغي منه ما يلغي وينشئ واقعا غيره إن كان لا يرتضيه" (قطب، ١٩٧٩). وبهذا يتضح أثر مفهوم التوحيد لدى سيد قطب ومنزلته وأثره في تغيير وتجديد عقل المسلم في زمن تداعت فيه على الأمة الإسلامية مناهج ونظم ومفاهيم مناهضة للتوحيد في حقيقة أمرها وإن ظهرت لنا بمظاهر وزخرف وشعارات براقة تدعي مصلحة البشرية وصلاح الكون. والنظر إلى الكون والحياة بناء علي مفهوم التوحيد هو دلالة شهادة التوحيد والمعنى الذي دلت عليه. ولقد أشار إلى ذلك المفكر الإسلامي إسماعيل راجا الفاروقي:"التوحيد هو منظور عام حقيقي لصدق الحق في هذا العالم سواء في الزمان أو المكان أو لتاريخ الإنسان نشأته و آخرته..المسلم لا يكون مسلما إلا إذا آمن بالله وحده هو الخالق ولا يعبد سواه لا طبيعة ولا مخلوق" (الفاروقي، ١٩٩٢).

الخلاصة

لقد قدم سيد قطب فهما عميقا ومنهجا ربانيا إيمانيا لمفهوم التوحيد. إن مقومات بقاء هذا الدين وصلاحه لكل زمان ومكان تكمن في خصائصه التي أودعها الله فيه. فلن يقف أي منهج أو فكر أو نظام بشري مُحدث أمام منهج خالق الإنسان والكون. وإن حُسْنَ الفهم وسلامة الإعتقاد والثبات على منهج الله – سبحانه وتعالى – في زمان ضعف الأمة هو محل الإبتلاء والإمتحان لأهل الإيمان. ولكن الله – سبحانه وتعالى – جرت سنته بأن أنعم على هذه الأمة في كل زمان برجال -صادقين لا تأخذهم في الحق لومة لائم- يقفون في وجه كل فتنة حتى يلقوا الله وهم على ذلك. ولا شك أن سيد قطب هو أحد رجال هذه الأمة كما شهد له بذلك جماهير من المسلمين فكان لفكره وتراثه أثر كبير على الأمة الإسلامية.

المصادر والمراجع

ابن تيمية، أحمد. (٢٠٠٤م). *مجموع الفتاوى*. وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد السعودية - مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

الحنفي، صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز. (١٤١٨ هـ). *شرح الطحاوية في العقيدة السلفية*. تحقيق أحمد محمد شاكر. مطبوعات وزراة الشؤون الإسلامية للأوقاف والدعوة والإرشاد الرياض.

الخالدي، صلاح عبد الفتاح. (١٩٩٤م). *سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد*. الطبعة الثانية، دار القلم دمشق.

الصاوي، صلاح. (٢٠٠٩م). *الثوابت والمتغيرات في مسيرة العمل الإسلامي المعاصر*. الطبعة الأولى. أكاديمية الشريعة بأمريكا.

الفاروقي، إسماعيل راجا. (١٩٩٢م). *التوحيد - تطبيقاته في الفكر والحياة*. المؤسسة العالمية للفكر الإسلامي بالولايات المتحدة المريكية – فرجينيا. الطبعة الثانية.

قطب، سيد. (١٩٧٩م). *معالم في الطريق*. الطبعة الشرعية السادسة. دار الشروق. القاهرة.

قطب، سيد. (١٩٩٧م). *خصائص التصور الإسلامي ومقوماته*. دار الشروق. القاهرة.

قطب، سيد. (٢٠٠١م). *هذا الدين*. الطبعة الخامسة عشرة. دار الشروق. القاهرة.

قطب، سيد. (٢٠٠٢م). *مشاهد القيامة في القرآن*. الطبعة الرابعة عشرة. دار الشروق القاهرة.

قطب، سيد. (٢٠٠٣م). *في ظلال القرآن*. الطبعة الشرعية الثانية والثلاثون. دار الشروق. القاهرة.

قطب، سيد. (٢٠٠٦م). *دراسات إسلامية*. الطبعة الحادية عشرة. دار الشروق. القاهرة.

Abdalla El-Banna, I., & Mohd Daud, N. A. (2019). تحليل مفهوم الجاهلية في فكر سيد قطب. *AL-ABQARI: Journal of Islamic Social Sciences and Humanities*.

Bouzarinejad, Y., Zarpeyma, S., & Marandi, E. (2017). Sayyid qutb and political islam: Islamic government from the perspective of sayyid qutb. *Journal of History Culture and Art Research*, *5*(4), 92. https://doi.org/10.7596/taksad.v5i4.587

El-Jaichi, S. (2022). Ignorance or sovereignty: The de-territorialization of Jihad in Sayyid Qutb's theo-political vision. *Journal of Political Ideologies*, *27*(1), 112–126. https://doi.org/10.1080/13569317.2021.1875655

Jamil, S., & Matondang, A. Y. (2017). The Eduction Thoughts of Sayyid Qutb in the Tafsir of Fi Zilal Al-Qur'an. *International Journal on Language, Research and Education Studies*, *1*(1), 53-66.

Muktafi, Haidary, A. H. A., & Zamzami, M. (2022). Rereading sayyid quṭb's islamism and political concept of al-ḥākimiyyah: A critical analysis. *Afkar: Jurnal Akidah & Pemikiran Islam*, *24*(1), 271–310. https://doi.org/10.22452/afkar.vol24no1.8

Zabidi, A. (2020). Sayyid Qutb's Concept of Da'wah in His Fi Zilal al Quran. *Ilmu Dakwah: Academic Journal for Homiletic Studies*, *14*(2), 167-186.